الباب الثانى

نبى الله هود ـ عليه السلام ـ وأسس دعوته

ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول

الفصل الأول: التعريف بهود عليه السلام.

الفصل الثانى: هود ـ عليه السلام ـ وقومه عاد فى القرآن الكريم.

الفصل الثالث: معالم مجتمع (عاد).

الفصل الرابع: أسس دعوة نبى الله ـ هود ـ عليه السلام.

الفصل الأول

التعريف بهود ـ عليه السلام ـ

تمهيد:

سيكون حديثنا فى هذا الفصل عن نسب نبى الله تعالى ـ هود ـ عليه السلام ـ وعن قومه وما حباهم الله به من نعم وافرة من بسطة فى الجسم وقوة فى البدن، ورغد من الحياة، وهذه النعم تستحق الشكر للمنعم المتفضل عليهم بذلك، لكنهم لم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم، وغاية ما وصلت إليه عقولهم وارتاحت إليه طباعهم أن اتخذوا أصنامهم آلهة، ثم إنهم بعد ذلك عثوا فى الأرض فساداً، هذه إشارات موجزة، وسنأتى بالحديث عليها بشىء من التفصيل بإذن الله تعالى.

أما نبى الله هود ـ عليه السلام ـ فهو:

عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. ويقال: هودين بن عبد الله بن رباح ابن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح. وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف ـ وهى جبال الرمل ـ وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشجر، واسم واديهم «مغيث» وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام»[1].

قال الحافظ ابن حجر: باب قول الله تعالى:

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ١ طبعة دار التأليف الأولى سنة ١٩٦٨م.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[1]

هو: هود بن عبد الله بن رباح بن جاور بن عوص بن سام بن نوح. وقال العينى: هو: هود بن عبد الله بن رباح بن خلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ .

ثم علق صاحب الفتح بقوله: وهذا الراجح فى نسبه[2].

أما عاد قوم هود ـ عليه السلام:

فقد قال الله تعالى عنهم:

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾[3]

ويقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ ﴾

أمر الله تعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله (واذكر...) أن يذكر (أخا عاد..) وهو (هود) عليه السلام.

ثم وقف المخاطب معجباً على مصرع (عاد) ومقيماً العبرة منها بقوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ ﴾[4]

وأمره أن يتلو على النّـاس فى القرآن نبأهم ونبأ رسولهم ودعوته لهم إلى عبادة الله

---

(١) سورة الاعراف، آية: ٦٥.

(٢) انظر: فتح البارى ج ١٣ ص ١١٥ شركة الطباعة الفنية عام ١٩٧٨م كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) سورة الأحقاف، آية: ٢١.

(٤) سورة الفجر، آية: ٦.

وحده، وترك الشرك والآلهة التى اتخذوها من دون الله، وكرر هذا المعنى فى أكثر من موضع من كتابه العزيز:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1]

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾[2].

وعاد هى من أول الأمم حضارة فى التاريخ الإنسانى كله، وهى أول أمة ذات حضارة قامت، وعرفت فى الجزيرة العربية، وإن نوعية الحضارة فيها انحرفت فبادت؛ وإن عوامل الهدم فى تلك الحضارة تمثلت فى اتجاهين:

(أ) الشرك بالله تعالى وجحود آياته.

(ب) كفر النعم والسلوك فى الحياة فى إطار هذا الكفر.

وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ أرسل هودا ـ عليه السلام ـ ليقيم من أود هذه الأمة ويضعها على الطريق الصحيح، وجهد فى ذلك وإن قيام الحضارات واستمرارها مرتبط بالإيمان بالله وحده، وبنعمه، وبطاعة رسله، والاستقامة فى الحياة على منهجه.

وإن (عاداً) عتت عن أمر ربها وعصت رسله فأوردت نفسها موارده الهلاك والاستئصال لها، وللشرك من الجزيرة كلها[3].

ومنهج الدراسة لعاد وهود يختلف باختلاف الباحثين والدراسين؛ وذلك بسبب أنَّ (عاداً) (من العرب البائدة)، وقد اختلفت نظرات الدارسين إليها بخاصة، وإلى العرب البائدة بعامة.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٩.

(٢) سورة النجم، آية: ٥٠.

(٣) من نبأ المرسلين ص ٤٢ د. حسن عيسى عبد الظاهر، دار الثقافة بالدوحة ط ١، عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

أولاً ـ عاد وهود ـ عليه السلام ـ وكتب أهل الكتاب:

١ـ ذهب بعض أهل الأخبار: إلى أن (عاداً) ورد ذكرها فى التوراة باسم (هدورام)[١] وقد استدلوا على ذلك: بأن (عاداً) وردت فى الكتب العربية مقترنة بإرم، وفى التنزيل الحكيم يقول المولى جل شأنه:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ ﴾[٢]

وبين (عاد إرم) و (هدورام) تشابه كبير فى النطق، لكن استشكل ذلك: بأنّ إشارة التوراة إلى (هدورام) على أنه من نسل (يقطان) أى: (قحطان) فى العربية وكتبها، وهذا لا يستقيم مع المعروف من الروايات الواردة فى هذا الشأن:

(أ) وقد بذل بعض الكتاب المعاصرين جهداً فى الإجابة على هذا الاستشكال معللاً ومؤيداً، وهو الكاتب (جورجى زيدان). بما لا يغنى ولا يقنع.[٣] ولازال الاعتراض وارداً.

(ب) أورد بعض المؤلفين ملاحظة مضمونها أن (التوراة) وصفت (النبى هوداً) بأنه أبو العبرانيين جميعاً، ثم قال: ولكننا لا نجد دليلا يؤيد هذا الرأى، وإن كان المؤرخون المسيحيون يعضدون هذا الاتجاه.[٤]

والملاحظة هذه وما ترتب عليها غير واردة؛ لأن المؤلف خلط هنا بين نبى الله (هود) ـ عليه السلام ـ وبين (هوذا) جد اليهود وأحد الأسباط أبناء (يعقوب) ـ عليه السلام ـ فالتبس عليه الاسمان والأمران معاً.

(جـ) والرأى الراجح أنه لم يرد ذكر (عاد) ولا (هود) ـ عليه السلام ـ فى (التوراة) ولا فى غيرها من كتب أهل الكتاب القديمة.

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح العاشر ٢٧ ؛ أخبار الأيام الأول، الإصحاح الأول

(٢) سورة الفجر الآيات: ٦ ـ ٨.

(٣) الهلال: الجزء الثالث والعشرون، السنة السادسة، أغسطس ص ٨٩٠ وانظر المفصل ١/ ٣٠٠.

(٤) راجع: التاريخ الجغرافى للقرآن ص ١٧٣.

ويعقب على ذلك الدكتور (جواد على) بقوله: «ويظهر من ذلك أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم علمهم من (عاد) وأمثالهم أخبروهم بعدم وجود ذكرهم فى التوراة»[1] ويعلل ذلك بقوله: أحاديث (عاد وثمود وهود وصالح) إنما هى أحاديث عربية...

وليس لها ذكر فى كتب (يهود)، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة، وأوجدوا لها صلة ونسباً بأسماء أعيان وردت فى التوراة، ولكن علمهم هذا لا يخفى بالطبع على من له وقوف على التوراة.

ثم يقول: «ثم إنَّ التوراة والكتب اليهودية الأخرى لم تهتم إلا بالشئون التى لها علاقة بالعبرانيين، وهى ليست كتباً فى التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن أمثالهم من قبائل» وعدم ذكر (عاد) و (هود ـ عليه السلام) فى التوراة أو غيرها من كتب أهل الكتاب لا ينفى وجودهما بحال، ويكفينا يقيناً ورود ذكرهما فى القرآن الكريم، وما جاء فيه مما يجىء فيها فهو حق انفرد به القرآن؛ لأن الله أنزله بالحق[2]، بل إنَّ فى هذا لرداً قاطعاً على المستشرقين ومن احتطب بحبالهم الذين يزعمون أنَّ الرسول (محمداً) ـ ﷺ ـ أخذ قصص القرآن من قصص التوراة، فهاهى التوراة خالية من ذكر عاد و (هود) ـ عليه السلام ـ بل وخالية من ذكر كثير من قصص ودعوات الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مما ورد ذكره فى القرآن الكريم؛ وما ورد من حقائق ذلك التاريخ البعيد فى القرآن الكريم وعلى لسان الرسول الخاتم ﷺ إنما هو من وجوه الإعجاز له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وللقرآن الكريم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[3]

---

(١) راجع: المفصل من تاريخ العرب ج١ ص ٢٩٩.

(٢) راجع: الإسلام فى عصر العلم ص ١٨٤، للمرحوم الدكتور/ محمد أحمد الغمراوى، نشر دار الكتب الحديثة بمصر.

(٣) سورة هود، آية: ٤٩.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1]

مناهج الباحثين فى عاد وهود:

(أ) يرى فريق من المؤرخين ـ ومعظمهم من المستشرقين والأوروبيين ومن سار على نهجهم ـ أن ما يسمى بالعرب (البائدة) ليس من التاريخ الحقيقى فى شىء، إنما هو جزء من التاريخ الأسطورى الذى يسبق عادة التاريخ الحقيقى لكل أمة[2].

وبناء على فهمهم هذا فهم ينكرون بالكلية، أو يشككون فى تاريخ العرب (البائدة) ويعتبرونه لوناً من الأساطير، يقوم على الخرافة والصنعة والخيال، وهذا مرفوض علمياً.

والآن قد رجع كثير من الباحثين المؤرخين الأوروبيين عن هذا الاتجاه، بعد أن ثبت لهم أن بعضاً من هذه القبائل البائدة قد تحدث عنها المؤرخون القدامى من الأغارقة والرومان، وبعد أن أثبتت الأحافير ـ إلى حد ما ـ صحة بعض ماورد فى المصادر الإسلامية عن هذه القبائل البائدة[3].

يقول الإمام ابن جرير: «فأمّا أهل التوراة فإنهم يزعمون أن لاذكر لعاد ولا ثمود،

---

(١) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٢) انظر: (عصر ما قبل الإسلام) لمحمد مبروك نافع ص ٣٠ ، ٣١.

(٣) دراسات تاريخية من القرآن الكريم: للدكتور/ محمد بيومى مهران، ط، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٤ هـ ص ٢٤٠ ، ٢٤١.

ولا لليهود وصالح فى التوراة، وأمرهم عند العرب فى الشهرة فى الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه»[1].

(ب) ويرى فريق آخر من المؤرخين أن (عادا) حقيقة تاريخية ثابتة، فقد ورد ذكرها وحضارتها وتقلباتها فى معيشتها فى القرآن الكريم، وكفاه مصدراً لإثبات ذلك، لايعتريه الشك ولا ريب فيه ـ وكون باحث ما غير مؤمن به فإنّ ذلك لا ينفى حقيقة ما ورد فيه، فالحقيقة قائمة ويجب التسليم بحديثه عنها[2].

يقول العلامة ابن خلدون: هذه القرون الماضية ـ بعامة ـ التى تطاولت عليها الأحقاب ودرست ليس لنا من خبر موثوق به عنها إلا ما يقصه علينا القرآن الكريم، ويؤثر عن الأنبياء بوحى الله إليهم.

وماسوى ذلك من الأخبار الأزلية فمنقطع الإسناد، ولذلك كان المعتمد عن الأثبات فى أخبارهم ما تنطق به آية القرآن فى قصص الأنبياء الأقدمين، أو الحديث الثابت عن رسول الله ـ ﷺ ـ أوما ينقله زعماء المفسرين فى تفسيرها من أخبارهم وذكر دولهم وحروبهم، ينقلون ذلك عن السلف من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، أو سمعوه ممن هاجر إلى الإسلام من أخبار أهل الكتاب وعلمائهم أهل التوراة أقدم الصحف المنزلة ـ فيما علمناه ـ مما لا يتعارض مع القرآن الكريم.

وماسوى ذلك من حطام المفسرين وأساطير القصص وكتب بدء الخليقة فلا يعول عل شيء منه؛ وإن وجد لمشاهير العلماء تأليف مثل كتاب (الياقوتية للطبرى) و(البدء) للكسائى، فإنما نحوا فيه منحى القصاص وجروا على أساليبهم، ولم يلتزموا فيها الصحة، ولاضمنوا لنا الوثوق بها، فلا ينبغى التعويل عليها، وترك وشأنها أ هـ.[3]

---

(١) راجع: تاريخ الطبرى ج ١ص ٢٣٢ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف بمصر، وانظر: تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٨.

(٢)راجع: من نبأ المرسلين، د/ حسن عيسى عبد الظاهر ص ٤٥.

(٣) انظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الثانى، ص ١٨.

وخلاصة القول : فالطريقة المثلى للبحث والدراسة فى هذا الموضوع هى الوقوف والالتزام بما ذكره القرآن الكريم، ووردت به السنة الصحيحة، فهما أول وأهم المصادر الموثوق بصحتها، والتى نستقى منها معلوماتنا بحق وثقة وطمأنينة.

ويستطيع الباحث على ضوء القرآن والسنة أن يعرف المدينة والسلطان والناس والأحداث وما كانوا عليه من إعراض وترف ووثنيات أودت بهم وبحضارتهم.

* * *

الفصل الثانى

هود عليه السلام ـ وقومه (عاد) فى القرآن الكريم

وبناء على ماتقدم يتضح لنا أن المصدر الصادق الموثوق به لمعرفتنا بنبى الله (هود) عليه السلام ـ وقومه (عاد) هو القرآن الكريم، حيث قد ورد ذكرهما فيه فى عشرين موضعا، وسميت سورة فيه باسم (هود) كما سميت أخرى باسم (الأحقاف) مواطن عاد؛ وقد ورد فى أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ ما يتعلق بنبى الله هود ـ عليه السلام ـ وقومه (عاد) وليس للعالم والإنسانية قاطبة من مصدر صدق ويقين وثقة غير هذين: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

المواطن التى ورد فيها ذكر (عاد) و(هود) ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم:

وسوف أكتفى بذكر اسم السورة التى ورد فيها النص، مع ذكر أول الآية وآخرها لمن يريد الرجوع إليها، وقد ورد ذكر (عاد) و(هود) ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم فى المواضع الآتية:

١ـ النص الأول: قوله جل شأنه:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

٢ـ النص الثاني: قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2]

٣ـ النص الثالث: قول الله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * ﴾[3]

٤ـ النص الرابع: قول البارى ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[4]

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ٦٥ ـ ٧٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٠.

(٣) سورة هود، الآيات: ٥٠ ـ ٦٠.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٩.

٥ـ **النص الخامس**: قول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

٦ـ **النص السادس**: قول الحق ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[٢]

٧ـ **النص السابع**: قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

إلى قوله تعالى:

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٩ ـ ١٣.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٤٢ ـ ٤٥.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[1].

٨ ـ النص الثامن: قول الله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾[2]

٩ ـ النص التاسع: قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

إلى قوله تعالى:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾[3]

١٠ ـ النص العاشر: قول الله تعالى:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[4]

١١ ـ النص الحادى عشر: قول البارى ـ جل شأنه ـ :

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٣١ ـ ٤٢.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٨ ، ٣٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٣ ـ ١٤٠.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

١٢ـ النص الثاني عشر: قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾[2]

١٣ـ النص الثالث عشر: قول الله ـ جل شأنه ـ :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[3]

١٤ـ النص الرابع عشر: قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

---

(١) سورة ص، الآيات: ١٢ ـ ١٥.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

(٣) سورة فصلت، الآيات: ١٣ ـ ١٦.

خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]

١٥ـ النص الخامس عشر: قول الله ـ جل شأنه ـ :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[2]

١٦ـ النص السادس عشر: قول الله تعالى:

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾[3]

١٧ـ النص السابع عشر: قول الحق ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾.[4]

١٨ـ النص الثامن عشر: قوله ـ جل شأنه ـ :

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات: ٢١ ـ ٢٦.

(٢) سورة ق، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢.

(٤) سورة النجم، الآية: ٥٠.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

١٩ـ النص التاسع عشر: قول الله ـ جل شأنه ـ:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾[2]

٢٠ـ النص العشرون: قول البارى ـ جل شأنه ـ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾[3]

إرم ذات العماد

فى النص العشرين: جاء قول الله تعالى:

---

(١) سورة القمر، الآيات: ١٨ ـ ٢١.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤ ـ ٨.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٦ ـ ١٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ ﴾[1]

هذه الآية الوحيدة فى القرآن الكريم التى ورد فيها ذكر (إرم ذات العماد) .

بيان معنى هذه الآية الكريمة

«ألم» : ـ الهمزة للاستفهام، (ولم) : حرف نفى ـ والمعنى: ألم تعلم؟

لأنَّ ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول ـ أى: رأى بصر ـ لأنه قد مضى، وإنما أطلق لفظ (الرؤية) ههنا على العلم؛ لأن أخبار (عاد، وثمود، وفرعون) المتتالية فى الآيات بعدها ـ كانت منقولة بالتواتر، فلذلك قال: (ألم تر) بمعنى: ألم تعلم، والمراد بعاد: هم قوم (هود)[2] .

فما هو ذلك الحديث الذى يقتضينا العجب والعبرة؟

وماهى (عاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ؟

أقوال المفسرين والمؤرخين فى هذا الموضوع :

القول الأول: أن (إرم) بمعنى (عاد الأولى) :

وبيان ذلك أن (إرم) : هى أمة قديمة يعنى بها (عاد الأولى) قاله مجاهد، وعلى هذا فلفظ (إرم) : عطف بيان لعاد ـ زيادة تعريف بهم وإيذانا بأنهم (عاد الأولى) القديمة[3] .

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٦ ـ ٨.

(٢) راجع: تفسير الرازى ج ٣١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٧ ، و (إرم) لفظ لا ينصرف.

(٣)انظر: زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ج ٩ ص ١١٠ .

ونقل الرازى أن (إرم) اسم لجد (عاد) ... قاله ابن إسحاق[1].

وذلك أن المتقدمين من قبيلة (عاد) كانوا يسمون (عادا الأولى)، لذلك يسمون (إرم) تسمية لهم باسم جدهم.

ومعنى (ذات العماد) على هذا الوجه: يحتمل الوجوه التالية:

الأول: أنهم كانوا بدويين يسكنون الأخبية والخيام، وبيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد، ومعلوم أن (الخباء) لابد فيها من العماد؛ والعماد: بمعنى العمود[2].

يقول الراغب الأصفهانى: العمد ـ بفتح العين وسكون الميم ـ: قصد الشيء، والاستناد إليه.

والعماد: ما يعتمد، قال تعالى:

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾

أى: الذى كانوا يعتمدونه، يقال: عمدت الشيء: إذا أسندته، وعمدت الحائط، مثله. والعمود: خشب تعتمد عليه الخيمة[3].

الثانى: أنهم كانوا طوال الأجسام، وأشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[4]

ويكون وصفهم بهذا على تشبيه قدودهم بالأعمدة.[5]

---

(١) راجع تفسير الرازى ج ٣١ ص ١٦٦ ، ١٦٧.

(٢) انظر: زاد المسير فى علم التفسير ج ٩ ص ١١١ ، ١١٢.

(٣) انظر: المفردات: للراغب الأصفهانى ص ٣٤٦، والمعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٢٦.

(٤) سورة الأعراف الآية: ٦٩.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٧ ويقول: قيل لهم: (إرم ذات العماد) لطولهم، روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما: ـ

يقول الراغب[1]: قيل: رفيع العماد. أى: هو رفيع عند الاعتماد عليه.

والعميد: السيد الذى يعمده النّاس، والشريف، ورئيس العسكر، وجمعه عمد؛ فمعنى ذات العماد: صاحبة الشرف الرفيع.

الثالث: وقيل: ذات البناء الرفيع، جمع (عمادة): وهى الأبنية المرتفعة (تذكر وتؤنث) ومعنى (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) على هذا الوجه:

أى: لم يخلق مثل (عاد) فى البلاد فى عظم الجثة، وشدة القوة والنفوذ؛ إذ زادهم الله بسطة فى الخلق.

القول الثانى: ـ أن (إرم) هى بيت مملكة (عاد)

ونقل العلامة ابن كثير[2]: عن (قتادة) قوله: (إرم هى بيت مملكة عاد) وعقب بقوله: وهذا قول حسن جيد قوى.

القول الثالث: أن (إرم) بمعنى الهلاك[3].

وبيانه: أن (إرم) مصدر (أرم يأرم) إذا هلك... قاله (مجاهد).

والمعنى: كهلاك ذات العماد،... وهو غريب.

القول الرابع: وهو قريب من سابقه:

أن (أرم) فعل ماض بمعنى (بلى) وقد قرىء به هكذا: (أرم ذات العماد) ـ بفتح الهمزة وكسر الراء ـ ونصب (ذات).

ومعناه: جعل الله ذات العماد رميماً.

---

(١) راجع مفردات الراغب الأصفهانى ٣٤٦ ومقدمة ابن خلدون.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٧.

(٣) راجع: البحر المحيط ج ٨ ص ٤٦٩.

ويكون (أرم) بدلاً من (فعل ربك) وبيانا له، وقد روى ذلك عن ابن عباس والضحاك.

القول الخامس: أن (إرم) بمعنى: حجارة، وأعلام، ومنارات، ذلك أنّ (إرم): فى اللغة: بمعنى حجارة أو نحوها تنصب فى المفازة ليهتدى بها[1].

يقول الراغب الأصفهانى[2] (الإرم): علم يبنى من الحجارة وجمعه: (آرام) وقيل للحجارة: (إرم)؛ وقوله تعالى: (إرم ذات العماد) إشارة إلى أعمدة مرفوعة مزخرفة.

فإرم: أعلام قوم عاد، كانوا يبنونها على هيئة المنارة؛ لأنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم فى أسفارهم، فاتخذوا فى طريقهم أعلاماً طوالاً، فكان ذلك عبثاً لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم، وقد نعى عليهم (هود) ـ عليه السلام ـ هذا التصرف بقوله:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾[3].

والريع: المكان المرتفع، والآية: العلم:

وكذلك بمعنى مايبنونه على هيئة القبور.

القول السادس: أن (إرم) اسم لمدينتهم، التى كانوا فيها.

وهذا القول للجمهور[4].

واختلف المفسرون والمؤرخون فى تعيين موضع هذه المدينة ـ على النحو التالى:

---

(١) انظر المعجم الوسيط مادة (إرم) ج ١ ص ١٥.

(٢)ـ المفردات للراغب ص ١٦ طبعة دار المعرفة. وانظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٢٨.

(٤) انظر: من نبأ المرسلين، د. حسن عيسى عبد الظاهر ص ٧٧.

(أ) قيل: إنها مدينة فى الصحراء العربية غارت فى جوف الرمال.

يقول الهمذانى وهو يصف جرز اليمن الشرقى:

«أول هذا الحيز مما يلى عَـدَن: (تيه أَبْـيَـن) وبه (إرم ذات العماد فيما يقال)[1]

(ب) وقيل: إنها الإسكندرية، روى ذلك القرطبى، وقاله محمد بن كعب.

(جـ) وقيل: إنها (دمشق) لكثرة مافيها من عمد الحجارة، قاله ابن المسيب وعكرمة والمقبرى؛ إذ كان من انتشار (عاد) فى الأرض ما يذكره المسعودى[2].

١ـ هذا وقد نقل كثير من المفسرين والمؤرخين ـ منهم الطبرى والزمخشرى والثعالبى وغيرهم ـ أخباراً إسرائيلية فى اسم هذه المدينة وصفتها، فيجب ألا يغتر طالب العلم بها ولا يذكرها على أنها حقائق تاريخية.

فالإمام (الطبرى) ـ وهو شيخ المفسرين والمؤرخين ـ كانت عنايته موجهة أساساً إلى تسجيل الوقائع التاريخية، ونسبة كل رواية منها إلى صاحبها، وتاريخه معتمد على الرواية أساساً. ويقول فى مقدمته: [3](وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنى راسمه فيه؛ إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه؛ إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وماهو كائن من أنباء الحادثين غير واصل

---

(١) انظر: (صفة جزيرة العرب للهمذانى ص ١٤٦) وجُـرُز ـ بضم الجيم والراء آخرة زاى: هى الأرض التى لاتنبت، أو أكل نباتها وقطع ولم يصبها مطر، وانظر تفسير الرازى ج٣١ ص ١١٦٨ـ انظر: تفسير الرازى ج٣١ ص ١٦٨ والبحر المحيط ج٤ ص ٤٦٩ ومروج الذهب ج ١ ص ١٩٥، وج٢ ص ١٩٣ والمفصل ج ١ ص ٣٠٢.

(٢) راجع: مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٢ ، ١٣٣.

(٣)ـ (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبرى ج١ ص ٧ ، ٨، طبعة المعارف بالقاهرة.

إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرنا عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو لم يستسغه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة، ولا معنى فى الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا، وإنما من قبل ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا).

ويثير اهتمامنا من هذا النص أن الإمام الطبرى ـ رحمه الله تعالى ـ كرر فيه اقتصاره على المروى[1] «دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس» وأن جهده كان التحرى فى أمانة النقل وهى مسئوليته، أما المتن نفسه ومضمون الخبر فعهدته (على ناقله إليه وإن كان فيه مايستنكره القارىء).

٢ـ أما العلامة ابن خلدون ـ رحمه الله تعالى ـ فكان له موقف إيجابى فى نقد (النص) نفسه، فهو ينقد ما تناقله المفسرون والمؤرخون فى هذه القصة[2] فيقول: «وأبعد من ذلك وأعرق فى الوهم ما يتناقله المفسرون فى تفسير سورة الفجر فى فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾[3]

فيجعلون لفظ (إرم) اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد، أى: أساطين...» إلخ. ثم يقول: والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب فى لفظة (ذات العماد) أنها صفة (إرم) وحملوا العماد على الأساطين، فتعين أن يكون (بناء) ورشح لهم ذلك قراءة (ابن الزبير) (عماد إرم) على الإضافة غير تتوين،

(١) انظر (القرآن والتاريخ) للدكتور/ عبد العزيز كامل/ مجلة الفكر.

(٢) انظر: لمقدمة لابن خلدون ص ١٤.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٦ ـ ٨.

ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى أشبه بالأقاصيص الموضوعة التى هى أقرب إلى الكذب، المنقولة فى عداد المضحكات؛ وإلا فالعماد هى عماد الأخبية بل الخيام، وإن أريد بها الأساطين فلا بدع فى وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم، لا أنه بناء خاص فى مدينة معينة أو غيرها؛ وإن أضيفت كما فى قراءة (ابن الزبير) فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة كما تقول:

«قريش كنانة» و (إلياس مضر) و (ربيعة نزار)، وأى ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذى تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله تعالى عن مثلها لبعدها عن الصحة...»[1].

٣ـ وأما العلامة (ابن كثير)[2] فيقول متجها إلى نقد السند والمتن معاً لقصة هذه المدينة، فيقول بعد نقله لما روى من صفات هذه المدينة الذهبية:

(أ) «فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين».

(ب) وأما قول (ابن جرير الطبرى): «يحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى:

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾

بلدة كانت (عاد) تسكنها» ففيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن (القبيلة) ولهذا قال بعده:

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ ﴾

يعنى يقطعون الصخر بالوادى.

---

(١) انظر (المقدمة) لابن خلدون ص ١٤ طبعة دار الفكر بيروت و (الأساطين): جمع، مفرده أسطوانة، وهى العمود والسارية، انظر المعجم الوسيط ج ١ ص ١٧.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٨.

(٣) سورة الفجر، الآية:٩.

(جـ) ثم إن المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك (القبيلة) المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لايرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم...؛».

ثم أشار العلامة ابن كثير إلى ما ورد حول قصة هذه المدينة التى رويت عن (عبد الله بن قلابة) قائلا: «فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها... إلخ[1].

هذا وقد طعن فى تحديد هذه المدينة بأنها (الإسكندرية أو دمشق) إضافة إلى ماتقدم بطعون منها[2]:

(أ) إنَّ منازل (عاد) كانت بين عمان إلى حضرموت إلى اليمن، وهى بلاد الرمال والأحقاف كما قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾[3].

وأما (الإسكندرية ودمشق) فليستا من بلاد الرمال.

(ب) إن القول بأنها (الإسكندرية أو دمشق) لا يلتئم مع تفسير الآية الكريمة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾

يجعل لفظ (إرم) بدلاً أو عطف بيان من (عاد) لأنه لا يتسق الكلام حينئذ.

ثم يقول ابن كثير: «فإنَّ هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك القول الجهلة من النَّاس أن تصدقهم فى جميع ذلك.

---

(١) انظر مزيداً من التفصيل فى تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٧، ٥٠٨.

(٢) راجع من نبأ المرسلين: د. حسن عيسى عبد الظاهر ص ٨٣.

(٣) سورة الأحقاف، الاية: ٢١.

ويقول : وعلى كل قول سواء كانت (العماد) أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحاً يقاتلون به، أو طول الواحد منهم؛ فهم (قبيلة) و (أمة) من الأمم، وهم المذكورون فى القرآن الكريم فى غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا ـ فى الفجر ـ وبذلك يتبين لنا رجحان القول الأول وهو أن المراد بإرم ذات العماد تلك الآمة القديمة المسماة (عاد الأولى) والله أعلم [1].

* * *

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٠٧ ، ٥٠٨.

الفصل الثالث

معالم مجتمع (عاد)

إن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة ومتمردين فى عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه[1].

ولما أخبر الله تعالى رسوله (نوحاً) ـ عليه السلام ـ أنه لن يومن من قومه إلا من قد آمن كما جاء فى قول الحق ـ جل شأنه ـ:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]

قال المفسرون: لما أوحى إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]

واستجاب الله تعالى دعوة رسوله نوح ـ عليه السلام ـ .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٢٣ ط بيروت الأولى سنة ١٩٦٦م.

(٢) سورة هود، آية: ٣٥.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ ، ٢٧.

وطهرت الأرض من الكافرين بالطوفان ولم يبق منهم أحد.[1]

وأراد الله تعالى أن تبدأ الحياة بدءاً جديداً من نوح وذريته أهل الإيمان؛

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾[2]

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ .. ﴾[3]

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[4].

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾[5]

وبدأت الحياة من جديد، وشاء الله تعالى أن ينتخب من ذرية نوح خلفاء من بعد قوم (نوح) ليتجنبوا سلوكهم والمصير الذى صاروا إليه.

وكان هؤلاء الخلفاء هم (عاد) قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[6]

ومن عليهم وآتاهم من مقتضيات الخلافة مابه يحققون مضمونها ويكونون خلفاء صالحين فى أنفسهم، وصالحين لعمارة الأرض، قال تعالى:

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى: زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ج ٤ ص ١٠٠ ـ ١٠٢، وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٤٥، والطبرى ١٥/ ٣٤٢.

(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ١١ ، ١٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٤١.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.

(٥) الصافات، آية: ٧٧.

(٦) سورة الاعراف، الآية: ٦٩.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾[1]

وقوله جل شأنه:

﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2]

وقوله تعالى:

﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3].

قال المفسرون[4]: كانت (عاد) قوم هود ـ عليه السلام ـ مخصوصين فى الدنيا بنوعين من الكمال البشرى:

أحدهما: أن بساتينهم ومزارعهم كانت فى غاية الطيب والبهجة، والدليل عليه قول الله تعالى:

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾[5].

والثانى: أنهم كانوا فى غاية القوة والبطش: قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾[6]

وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى:

---

(١) سورة الاحقاف، آية: ٢٦.

(٢) سورة الآعراف، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٣٢ ـ ١٣٥.

(٤) انظر تفسير الرازى ج ١٨ ص ١٢.

(٥) سورة الفجر، الآيتان: ٧، ٨.

(٦) سورة الفجر، الآيات: ٦ ـ ٨.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، قال محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة: سمعت علياً يقول لرجل من ـ حضرموت ـ: هل رأيت كثيباً أحمر تخالطه مدرة[2] حمراء؟ ذا أراك وسدر[3] كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ـ هل رأيته؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكنى حُدِّثْتُ عنه، فقال الحضرمى: وما شأنه يا أمير المومنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام، وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن نبى الله تعالى ـ هوداً ـ عليه السلام، دفن هناك، وكان من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه[4].

من نعم الله تعالى على عاد:

١ـ خلفاء من بعد قوم نوح:

قال جل شأنه:

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[5]

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٢) المدرة: الطين لارمل فيه.

(٣) الأراك والسدر: نوعان من الشجر معروفان.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٩، ٤٣٠ طبعة الشعب.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٦٩.

(أ) أى: خلفتموهم فى الأرض[1].

(ب) أوجعلكم ملوكاً فى الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم.

حالتهم الدينية قبل بعثة (هود) ـ عليه السلام:

لقد كان هؤلاء القوم يعبدون أصناماً من دون الله، وطغوا وبغوا فى الأرض بسبب قوتهم وما حباهم الله به من خيرات ونعم كثيرة.

يقول الإمام ابن جرير الطبرى وغيره: «وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فصنم يقال له: صداء، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء... إلخ ـ وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله... فبعث إليهم (هوداً) ـ عليه السلام ـ وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة، واتبعه منهم ناس وهم يسير مكتتمون بإيمانهم، وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له: مرثد بن سعد بن عقير وكان يكتم إيمانه»[2].

معرفة (عاد) لنوح ـ عليه السلام ـ ورسالته وقومه:

كانت (عاد) ومن عاصرها من الأمم يعلمون أن (نوحاً) ـ عليه السلام ـ كان رسولاً، ويعلمون ما كان من قومه معه، وإنه وفى لهم بما وعدهم من العذاب إن أصروا على كفرهم، وما كان من شأنه هو وأصحاب السفينة، وكان الطوفان حاضراً فى أذهانهم ومعلوماً لهم.

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٨٧، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٤٥.

(٢) راجع: تفسير ابن جرير الطبرى ج ٨ ص ٢١٧، طبعة مصطفى الحلبى الثالثة عام ١٩٦٨م وتفسير المنار ج ٨ ص ٤٨٥ طبعة حجازى الرابعة.

﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]

وبذلك ذكرهم رسولهم (هود) ـ عليه السلام ـ ليكون ذلك[2]:

(أ) بياناً لنعمة الله عليهم بالاستخلاف لهؤلاء الهلكى.

(ب) وتذكيراً لهم أن لا يكونوا مثلهم فيكون مصيرهم مثلهم.

فهذا التذكير كما هو تصريح بالنعمة أيضاً تعريض بالنذارة والوعيد بأن قوم نوح إنما استأصلهم وأبادهم عذاب من الله على شركهم.

ومع هذا التذكير بالنعمة والتخويف من العذاب، ومع هذا الترغيب والترهيب كان منهم الإعراض والبغى.

فقد خلفت (عاد) قوم (نوح) على الأرض فكانوا ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر.

فملكوا البلاد وقهروا أهلها، وصاروا أصحاب سلطان، وقوة، وعمارة، وترف، حتى ظنوا بذلك الخلود لأنفسهم.

وقد أوتوا من أسباب الحياة ونعيمها وعمارتها والقوة والصحة فى كل جانب من جوانب الحياة حتى كان ذلك سمتهم فى كل شىء وبه عرفوا وتميزوا ومع تميزهم بالنعمة كان منهم تميز آخر وهو نوع سلوكهم.

سلوكهم كخلفاء من بعد قوم نوح:

لقد تميزوا ـ بسلوكهم ـ عن معنى الخلافة التى نيطت بهم وكانت موطن نعمة الله عليهم، فبدلوها كفراً وأحلوا أنفسهم دار البوار.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ٨ القسم الثانى ص ٢٠٥.

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]

فلم يرعوا نعمة استخلاف الله لهم فى الأرض من بعد قوم نوح فكانوا شر خلف لشر سلف، وكانوا أول الأمم الذين[2] عبدوا الأصنام بعد الطوفان ورفضوا أن يكونوا امتداداً للإنسانية الصالحة المستخلفة، فلم يكونوا جديرين بحق الحياة.

يقول الإمام ابن كثير ـ نقلاً عن محمد بن إسحاق ـ: «فلما أبو إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك»[3].

ثم كان بعد ذلك عقابهم الاستئصال؛ ليتركوا مجال الحياة لغيرهم يأتى من بعدهم لعله يحمل الأمانة التى ضيعوها، والرسالة التى كذبوها وأعرضوا عنها، والحياة التى بددوها بترف العابثين وبطش الجبارين، وجحود النعمة، وكفر المنعم، وتكذيب المرسلين.

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[4].

* * *

(١) سورة هود، الآية: ٦٠.

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٥٤.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٣١ طبعة الشعب.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

الفصل الرابع

أسس دعوة نبى الله هود ـ عليه السلام

فى هذا الفصل نعرض ـ إن شاء الله تعالى ـ دعوة نبى الله هود ـ عليه السلام ـ ونبين المنهج الذى سلكه فى الدعوة إلى الله جل شأنه، ومدى ما بذله من نصح وإرشاد وتلطف فى القول، ولين فى الخطاب، وإظهار الشفقة والنصح لقومه، فهو رسولهم ومرشدهم وهو رائدهم، والرائد لا يكذب أهله، ولكن قومه كرهوا أن يتركوا عبادة الأصنام التى ألفوها، وأن يتبعوا بشراً مثلهم يزعمون أنه لا مزية له عليهم؛ فعموا وصموا عن الحق.

سلك هود ـ عليه السلام ـ فى دعوته قومه مسلكين متعانقين:

الأول: دعاهم بما دعا به كل رسول قومه من عبادة الله وحده وتقواه وطاعته واتباع ماجاء به الرسول وعدم عصيانه.

الثانى: نعى عليهم ماهم عليه من سوء فى العقيدة والفكر والعمل والكفر والجحود، وبين لهم خطل ماهم عليه، وما يجب أن يصححوا به مسارهم غير الصحيح، وتحقيق معنى الخلافة التى نيطت بهم[1].

ذلك إجمال وفيما يلى تفصيله:

تمادت عاد فى غيها وعطلت منافذ الإدراك الصحيح، فأغلقت قلوبها دون كل

---

(١) المسعودى ج ٢ ص ١٤٥، وتاريخ الطبرى ج ١ ص ٢١٦ طبعة دار المعارف بمصر.

حق، وأعمت أعينها عن رؤية كل بينة، وصمت آذانها عن سماع أى نصح، وكان أن تراكمت الأخطاء فى طريق حياتها حتى افتقدت أهم وأصل ما يجب أن يكون عليه السلوك الإنسانى السوى؛ وإذا كانت الحياة الإنسانية فى أصولها القويمة تقوم على دعامتين أساسيتين: هما:

(أ) تعظيم الخالق.

(ب) والإحسان إلى الخلق.

فإنّ (عاداً) بكفرها بربها افتقدت العنصر الأول، ثم بسلوكها المنحرف فى الحياة افتقدت العنصر الثانى.

ومن هنا كانت التبعة الثقيلة فى تدارك هذا الانهيار وإعادة بناء هذه الأمة على هذين الأساسين، وكانت تلك المهمة هى محصل دعوة (هود) ـ عليه السلام ـ فبرز ذلك الهدفان واضحين فى دعوته ومنهجه وسلوكه[1].

منهج هود ـ عليه السلام ـ فى دعوته قومه إلى الله تعالى:

بدأت دعوة (هود) قومه (عاداً) لينة رفيقة بهم مستميلة إياهم من (أخ) لهم ليس غريباً عنهم، ولاجاهلا بحالهم، ولا متجنيا عليهم، وقد أشارت إلى هذا الحوار آيات كريمة فى كتاب الله تعالى، منها قول الحق جل شأنه:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ

(١) راجع: من نبأ المرسلين ص ١٢٧.

قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1]

بيان معنى الآيات

توضح لنا هذه الآيات الكريمة حوار نبى الله (هود) ـ عليه السلام ـ مع قومه ومنهجه فى دعوتهم إلى الله عز وجل.

يقول الله تعالى:

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا اله ما لكم من إله غيره ﴾

هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى:

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾

والمعنى:

وأرسلنا إلى عاد أخاهم فى النسب هودا[2] فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه «يا قوم اعبدوا الله».

قال الإمام النسفى[3] وقوله: (أخاهم هوداً) أى: واحد منهم، من قولك: «يا أخا العرب للواحد منهم، وإنما جعل واحدا منهم لأنهم عن رجل منهم أفهم، فكانت الحجة عليهم ألزم».

واتفق المفسرون على أن هوداً ـ عليه السلام ـ لم يكن أخاهم فى الدين، ثم اختلف المفسرون فى سبب الأخوة من أين حصلت؟ فقال البعض: إنه كان واحداً من تلك القبيلة، قاله الكلبى.

وقال آخرون: إنه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من جنس الملائكة، فكفى

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٦٥ ـ ٦٩.

(٢) انظر: تفسير المنار ج ٨ ص ٤٩٦ طبعة حجازى الرابعة.

(٣) تفسير النسفى ج ٢ ص ١٨ طبعة محمد على صبيح.

هذا القدر فى تسمية هذه الأخوة، والمعنى: إنا بعثنا إلى عاد واحداً من جنسهم وهو البشر؛ ليكون الفهم والأنس بكلامه وأفعاله أكمل.

ورأى ثالث وهو: أن أخاهم بمعنى: صاحبهم ورسولهم، والعرب تسمى صاحب القوم أخا القوم، ومنه قوله تعالى:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾[1]

ـ أى: صاحبتها وشبيهتها[2].

والذى يرجح فى أخوة هود ـ عليه السلام ـ أن هوداً واحد من تلك القبيلة؛ وذلك للأسباب الآتية:

١ـ لأنه اجتمع معهم فى جد، فهو يلتقى معهم فى «عاد» لأن (عاد) بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح، و(هود) ـ عليه السلام ـ بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح.

٢ـ قال ابن حجر فى الفتح[3] : «وسماه أخاهم لكونه من قبيلتهم لا من جهة أخوة الدين».

٣ـ قال الزجاج: «وإنما قيل: أخوهم؛ لأنه بشر مثلهم من ولد أبيهم آدم، ويجوز أن يكون أخاهم لأنه من قومهم»[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) انظر تفسير الخازن ج ١ ص ٢٤٧ طبعة مصطفى الحلبى الثانية سنة ١٩٥٥، والتفسير الكبير للفخر الرازى ج ١٤ ص ١٥٤ ، ١٥٥، طبعة دار الكتب العلمية طهران.

(٣) فتح البارى بشرح البخارى ج ١٣ ص ١١٥ شركة الطباعة الفنية «كتاب أحاديث الأنبياء» باب: وإلى عاد أخاهم هوداً.

(٤) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ج ٣ ص ٢٢٢.

٤ـ ومما يرجح القول ويؤيده ما قاله أبو سليمان الدمشقى: «وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح؛ وإنما سماه أخاهم؛ لأنه كان نسيباً لهم، وهو وَهُـمْ من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام»[1].

ولا شك أن (هوداً) ـ عليه السلام ـ كان على هدى، وقومه كانوا على ضلال، وأخوة النسب لا تقتضى التبعية فى الدين، فكل نبى أرسل إنما دعا إلى عبادة الله وحده، فقد بدأت دعوة (هود) قومه (عاداً) لينة رفيقة بهم مستميلة إياهم من (أخ) لهم ليس غريباً عنهم، ولا جاهلا بحالهم ولا متجنياً عليهم

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (الأعراف ـ ٦٥)

وقد وجه (هود) ـ عليه السلام ـ نداءه لقومه بالدعوة بيناً واضحاً قال مترفقا[2] بهم ومستميلاً إياهم: (يا قوم) هكذا افتتح نداءه لهم باسترعاء أسماعهم واستعطاف جانبهم مشيراً بذلك إلى أهمية ما سيلقى إليهم مذكراً إياهم بأنهم (قومه) وهو (أخوهم)، وبمقتضى هذه الأواصر فحقه ألا يخالفوه.

وقد وجهها إليهم بعامة لم يخص بها طائفة دون طائفة، محددة المعالم والتكاليف متوجهاً بها إلى هدفين:

الأول: هو الوفاء بحق الله تعالى بتوحيده والتوجه بالعبادة له وحده والإنابة إليه.

الثانى: ـ القيام بحق الخلافة التى استخلفهم الله بها، وعمارة الأرض والحياة وعدم الطغيان.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٢٢.

(٢) انظر: البحر المحيط ج٤ ص ٣٢٠ ومعمول هذا القول: جملة الأمر التالية: بعبادة الله وحده ورفض آلهتهم التى سموها.

أسس الدعوة: عند نبى الله هود وجميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مشتركة.

الأساس الأول:

١ـ (اعبدوا الله...)

وفيه دعوة صريحة بينة لا لبس فيها، دعوة طلب وأمر تكليف ثابت، إلى عبادة الله تعالى: بالتوجه، والدعاء الذى هو مخ العبادة المطلوبة ولبابها إليه، فهو وحده الإله الحق سبحانه، وهذه العبادة هى حق الله تعالى على خلقه، بل غاية خلقهم، قال جل شأنه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

الأساس الثانى:

قوله تعالى:

﴿ ما لكم من إله غيره... ﴾

هذا الأساس[2] كالدليل على الدعوة قبله، وهو حكم قاطع وصريح لاغموض فيه ولا لبس بنفى الألوهية عن غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويأتى

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبرى ج٨ ص ٢١٣ ، ٢١٥ ، والبحر المحيط ج ٤ ص ٣٢٠ والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى ج ١٨ ص ١١ و ج ١٤ ص ١٦٥، ١٥٥، ١٦٢ ، وجملة (مالكم من إله غيره) مستأنفة ابتدائية.

منبهاً على الوصف الداعى إلى عبادة الله وانفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية فهو المرجو إحسانه المحذور انتقامه دون آلهتهم، والمقصود هو الإقرار بالتوحيد.

والمعنى: (اعبدوا الله) أى: لا تعبدوا غير الله لا استقلالا ولا بالتبع والتوسط، فإنَّ هذا عين الشرك الذى ضل به أكثر من ضلَّ من الخلق[1] بدليل أنه (مالكم من إله غيره) أى: ليس لكم إله غيره تتوجهون بالعبادة والدعاء إليه.

وذلك يدل على أن المقصود والمطلوب من هاتين الدعوتين ما يلى:

١ـ حملهم على توحيد الله بالعبادة، ومنعهم عن الاشتغال بعبادة غيره.

٢ـ ومن دليل ذلك أنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة وعظيمة، وظاهر أن العبادة ـ وهى نهاية التعظيم ـ لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وصريح العقل والنقل يدل على أنه ليس لغيره ـ من أصنام وغيرها ـ شىء من النعم على الخلق لأنها جمادات، والجماد لاقدرة له على شىء أصلاً، وإذاً فهو وحده الذى يستحق العبادة.

ومحصل ذلك أنه يجب عليهم:

(أ) أن يعبدوا الله.

(ب) وألا يعبدوا شيئاً غيره مهما كان.

فهو وحده الإله الحق المستحق للعبادة، لا غيره، قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ ﴾.[2]

---

(١) انظر: تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا ج ٨ ص ٤٩٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

وهنا يرد سؤال[1]: وهو أنه كيف دعاهم إلى (عبادة) الله تعالى قبل أن يقيم الدلالة على ثبوت الإله تعالى؟

والجواب: أن دلائل (وجود) الله تعالى ظاهرة: وهى دلائل الآفاق والأنفس، وقلما توجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الله تعالى، ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[2]

وقوله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[3]

وإنما الشأن فى عبادة الأوثان فإنها آفة عمت أكثر أطراف الأرض، وهكذا الأمر كان فى الزمان القديم: زمان (نوح) ـ عليه السلام ـ و(هود) ـ عليه السلام ـ و(صالح) ـ عليه السلام ـ فهؤلاء الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام، وهكذا يكون الأمر فى كل آن[4].

وقوله: (أفلا تتقون) استعطاف وتحضيض على التقوى.

والمعنى: أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال؟!... لتنجوا من عذابه.[5]

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازى ج ١٤ ص ١٥٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٤) راجع من نبأ المرسلين ص ١٢٩.

(٥) راجع: تفسير المنار، للسيد رشيد رضا ج٨ ص ٤٩٦.

قال الإمام أبو حيان: وفى قوله: «ألا تتقون» استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى، ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر فى العالم مثلها قال لهم:

﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾

وواقعة (هود) ـ عليه السلام ـ مسبوقة بواقعة (نوح) ـ عليه السلام ـ وعهد الناس قريب بها فاكتفى (هود) بقوله لهم: «أفلا تتقون».

والمعنى: تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله تعالى وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذى اشتهر خبره فى الدنيا، فقوله: «أفلا تتقون» إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة»[1].

ومن سفيه القول أن يستغنى عن عقيدة، ومن الإسفاف أن تقوم عقيدة من غير تكليف ومنهج وتحديد مسار، فإذا خالط النفوس حب المنهج السماوى فهذا هو السداد والابتعاد عن منزلقات التخلل الوعرة، هناك أناس يجادلون لا ليفهموا بل ليصدوا عن سبيل الله، وآخرون خاضعون مذعنون طائعون للحق، وسلكوا الطريق المستقيم، وكأنما عظم على الطغاة المستكبرين أن يستنكر عليهم (هود) ـ عليه السلام ـ عبادتهم لغير الله تعالى ـ فردوا عليه ردا فاحشاً قبيحاً حكاه المولى تعالى فى قوله:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[2]

سفه الرجل: طاش وصار ضعيف العقل أو عديم الحلم، فهو سفيه، والجمع:

(١) راجع: البحر المحيط لأبى حيان ج ٤ ص ٣٢٣، طبعة النصر الحديثة بالرياض.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٦.

سفهاء، وسفه نفسه: استخف بها وامتهنها، والسفه والسفاهة: خفة فى النفس لقلة التعقل فى أمور الدنيا أو الدين، وسفهاً: جهلاً[1].

قال ابن قتيبة: السفاهة: الجهل. وقال الزجاج: السفاهة خفة الحلم والرأى؛ يقال: ثوب سفيه إذا كان خفيفاً[2].

والمعنى للآية الكريمة:

قال الأغنياء المترفون الذين كفروا من قوم (هود) ـ عليه السلام ـ له: إنا لنراك متمكناً فى خفة العقل راسخاً فيها، حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر، وإنا لنظنك من الكاذبين فى دعوى التبليغ.

قال الإمام النسفى: «وإنما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؛ لأن فى أشراف قوم «هود» من آمن، منهم مرثد بن سعد، فأريد التفرقة بالوصف، ولم يكن فى أشراف قوم (نوح) ـ عليه السلام ـ مؤمن»[3].

وهذا يدل على بلاغة القرآن الكريم وإنصافه فى أحكامه. قال صاحب المنار: عن قول الله تعالى حاكياً قول الملأ الذين كفروا من قومه:

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

وقد أكدوا ظنهم الآثم كما أكدوا اتهامهم بالسفاهة مبالغة منهم فى الإساءة إليه.

ورجح بعض العلماء أن الظن هنا على حقيقته لأنهم لو قالوا له: وإنا لنعتقد أنك

---

(١) انظر: معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ج١ ص ٢٧٠ طبعة دار الفكر العربى: محمود إسماعيل إبراهيم.

(٢) انظر: زاد المسير فى علم التفسير ج ٣ ص ٢٢٢.

(٣) انظر: تفسير النسفى ج ٢ ص ١٨ طبعة محمد على صبيح.

من الكاذبين لكانوا كاذبين على أنفسهم فى ذلك؛ لأنهم يعلمون منه الصدق وحسن السيرة»[1].

وهذا إيماء إلى تكذيبهم كل رسول؛ إذ عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحداً منهم[2].

يقول صاحب التحرير والتنوير[3]: «وقد تشابهت أقوال قوم هود، وأقوال قوم (نوح) فى تكذيب الرسول؛ لأن ضلالة المكذبين متحدة، وشبهاتهم متحدة، كما قال تعالى:

﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[4]

فكأنهم لقن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى:

﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[5].

فقد كذبت (عاد) بتوحيد الله تعالى، والدلائل كلها ناطقة بلسان حالها ومقالها بأن خالق الكون واحد لا شريك له، فأى كذب فى هذا؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

فماذا كان رد (هود) ـ عليه السلام ـ على الملأ الذين كفروا؟

لقد كان الفرق شاسعاً بين كلامهم ورده وبين اتهامهم ودفاعه.

---

(١) تفسير المنار ج ٨ ص ٤٩٧.

(٢) تفسير المراغى ج ٨ ص ١٩٣ طبعة مصطفى الحلبى الرابعة عام ١٩٦٩م.

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور ج ٨ ص ٢٠٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٥) سورة الذاريات ، الآية: ٥٣.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[1]

يقول الإمام ابن الجوزى فى بيان قوله تعالى:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾

هذا موضع أدب للخلق فى حسن المخاطبة؛ فإنه دفع ما سبوه به من السفاهة بنفيه فقط[2].

والمعنى للآية:

ليس بى أى نوع من أنواع السفاهة كما تدعون، ولكنى رسول من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر، وهنا نرى أن «هوداً» ـ عليه السلام ـ فى هذا الرد الحكيم على قومه قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة كما نفى أخوه (نوح) من قبله عن نفسه تهمة الضلالة، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفته وطبيعة رسالته، وأنه رسول من رب العالمين إليهم، وأنه بمقتضى أخوته لهم ليس معقولاً أن يكذب عليهم أو يخدعهم؛ فإن الرائد لا يكذب أهله، وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عن السوء.

ويقول الإمام ابن جرير الطبرى فى بيان معنى الآية الكريمة: «ليس بى أى ضلالة عن الحق والصواب، ولكنى رسول من رب العالمين أرسلنى، فأنا أبلغكم رسالات ربى وأؤديها إليكم كما أمرنى أن أؤديها»[3].

---

(١) سورة الأعراف الآيتان: ٦٧ ، ٦٨.

(٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ج٣ ص ٢٢٢.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبرى ج ٨ ص ٢١٥ طبعة مصطفى الحلبى الثالثة ١٩٦٨م.

ويقول الأستاذ محمد رشيد رضا: «والمعنى: ليس بى أدنى شيء من ضروب السفاهة وشوائبها، ولكنى رسول من رب العالمين، والله أعلم حيث رسالته، وهى أمانة عنه، فلا يختار لها إلا أهل الحصافة برجحان العقل وسعة الحلم، وكمال الصدق، وإلا لفات ما يقصد بها من الحكمة، ولم تقم بها لله حجة[1].

منطق الملأ من قوم هود:

قال الملأ الذين كفروا من قومه:

(أ) إنا لنراك فى سفاهة.

(ب) وإنا لنظنك من الكاذبين.

وكأنما [2]كبر على الملأ من قوم (هود) أن يدعوهم واحد منهم إلى الهدى، وأن يستنكر منهم قلة التقوى، فقالوا: إنهم رأوه فى سفاهة وحماقة وتجاوز للحد، وسوء تقدير للمقام فانطلقوا هكذا بهذا الاتهام الشنيع، ثم بالكذب فى غير تحرج ولا حياء جزافاً بلا ترو ولا تدبر ولا دليل.

أما اتهامهم له بالسفاهة فقولهم له مواجهة: «إنا لنراك فى سفاهة» والرؤية هنا: قلبية، أى: إنا لنعلم أنك فى سفاهة.

والسفاهة: مصدر، عبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التى لاثبات لها ولا جودة، وأصل السفه: الخفة، ومعنى (فى سفاهة)[3]: فى خفة حلم، وسخافة عقل، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، والسفه فى الثوب: خفة نسجه، وجعلت السفاهة ظرفاً (فى سفاهة) على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، هكذا

(١) راجع: تفسير المنار ، للشيخ محمد رشيد رضا ج ٨ ص ٤٩٧.

(٢) انظر: فى ظلال القرآن، للأستاذ/ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ ج٣ ص ٥٤٦.

(٣) انظر: الكشاف ج ٢ ص ٨٧ وتفسير ابن عطية ج ٥ ص ٥٤٩ وتفسير التحرير والتنوير ج ٨ ص ٢٠٢.

جعلوا قوله: «ما لكم من إله غيره» كلاهما لا يصدر إلا عن مختل العقل؛ لأنه من قول المحال عندهم[1].

واتهموه بالكذب:

(أ) فقالوا:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.[2]

وقالوا:

﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3]

وأطلقوا (الظن) على اليقين فى قولهم:

﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾

وهو استعمال كثير، وأرادوا تكذيبه فى قوله:

﴿ مالكم من إله غيره ﴾

وفيما يتضمنه قوله ذلك من كونه رسولا إليهم من الله.

(ب) وقالوا:

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.[4]

ذلك أنه قال (هود) لقومه:

---

(١)من نبأ المرسلين ص ١٤٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٦.

(٤) سورة الأعراف ، الآية: ٧٠ والأحقاف الآية: ٢٢.

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

كان قوله: «أفلا تتقون» مشعراً بالتهديد والتخويف بالوعيد؛ فلهذا المعنى قالوا: «فأتنا بما تعدنا» وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذباً بدليل أنهم قالوا له: «وإنا لنظنك من الكاذبين» فلما اعتقدوا كونه كاذباً قالوا له: «فأتنا بما تعدنا» والغرض: أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذباً، وإنما قالوا ذلك لأنهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر فلا جرم استعجلوه على هذا الحد.[1]

وكما قال قوم نوح له:

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

وكما[3] قال مشركو العرب لخاتم الرسل محمد ـ ﷺ ـ: كاهن ومجنون وشاعر، وكما قيل للرسل كلهم أمثال هذه الافتراءات والبهتان كذلك قال قوم «هود» وتشابهت أقوالهم جميعاً فى تكذيب الرسل؛ لأن ضلالة المكذبين متحدة، وشبهاتهم متحدة «تشابهت قلوبهم» وكأنهم تواصوا به ولقن بعضهم بعضاً.

من أخلاق النبوة:

وفى إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من نسبهم إلى: (الضلال، والسفاهة). بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم[4].

---

(١) انظر: التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ج ١٤ ص ١٦٥.

(٢) سورة الأعراف ، الآية: ٦٠.

(٣) فى ظلال القرآن ج ٨ ص ٥٤٤، و ج ٣ ص ٥٣٩.

(٤) انظر: الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٨٧ وتفسير النسفى ج ٢ ص ١٩.

العبرة من ذلك:

وحكاية الله ـ عز وجل ـ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

وفى قوله تعالى:

﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[1]

يقول أبو حيان: «وجاء بوصف الأمانة، وهى الوصف العظيم الذى حمله الإنسان، ولا أمانة أعظم من أمانة الرسالة، وإيصال أعبائها إلى المكلفين، والمعنى أنى عرفت فيكم بالنصح، فلا يحق لكم أن تتهمونى، وبالأمانة فيما أقول فلا ينبغى أن أكذب...»[2].

قال بعض أهل العلم[3]: «فإن قيل: مدح الذات بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء، أجيب: بأنه فعل «هود» ـ عليه السلام ـ ذلك لأنه كان يجب عليه إعلام قومه بذلك، ومقصود الرد عليهم فى قولهم: «وإنا لنظنك من الكاذبين» فوصف نفسه بالأمانة، وأنه أمين فى تبليغ ما أرسل به من عند الله.وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه فى موضع الضرورة إلى مدحها».

ويظهر لنا من خلال التعبير القرآنى أن قوم (هود) ـ عليه السلام ـ قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة؛ كما تعجب قوم (نوح) ـ عليه السلام ـ من قبلهم من ذلك، فأخذ «هود» ـ عليه السلام ـ فى إزالة هذا التعجب من نفوسهم فقال لهم:

---

(١) سورة الأعراف ، الآية: ٦٨.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبى حيان ج ٤ ص ٣٢٤.

(٣) السراج المنير: للخطيب الشربينى ج ١ ص ٤٦٦ وتفسير الخازن ج ٢ ص ٢٤٧، ٢٤٨.

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾[1].

والمعنى: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه أو نسبه وحسبه؟ إن ما عجبتم له ليس موضع عجب بل هو عين الحكمة.

فقد اقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم من يرشدهم إلى الطريق المستقيم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وشبيه بهذا قول الله ـ عز وجل ـ حكاية عن كفار مكة:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[2]

يقول الطبرسى فى بيان قول الحق تعالى:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ ﴾

لا عجب فى أن جاءكم نبوة، وقيل: معجزة وبيان على رجل منكم فى النسب، نشأ بينكم، وقيل معناه: كيف تتعجبون من بعثة رجل منكم ولا تتعجبون من عبادة حجر»[3].

ومن فرط الجهالة وغاية الغباوة عجبوا من كون رجل رسولاً، ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً.

ثم أخذ نبى الله «هود» ـ عليه السلام ـ فى تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه؛ لكى يحملهم على شكر الله تعالى، فقال:

---

(١) سورة الأعراف ، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٣) انظر: مجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى ج ٨ ص ٤٣٧ طبعة بيروت.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[1].

الخلفاء: جمع خليفة، وهو الذى يخلف غيره فى شىء.

وفى معجم الألفاظ والأعلام القرآنية.[2]: خلف الوارث الموروث: جاء بعده وقام مقامه، وخلف الشىء: تركه وراءه...».

والمعنى: واذكروا بتأمل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم «نوح» الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وجحودهم وتكبرهم. وفى ذكر «نوح» إشارة إلى رفع التعجب، يعنى هذا الذى جئت به ليس ببدع، فاذكروا «نوحاً» وإرساله إلى قومه، وإلى الوعيد والتهديد.

أى: اذكروا هلاك قومه لتكذيبهم رسول ربهم[3].

وهذا التذكير تصريح بالنعمة وتعريض بالنذارة والوعيد بأن قوم نوح إنما استأصلهم وأبادهم عذاب الله نتيجة شركهم وعدم طاعتهم رسولهم، فمن اتبعهم فى صنيعهم يوشك أن يحل به عذاب من عند الله تعالى.

ثم كرر «هود» ـ عليه السلام ـ تذكيرهم بنعم الله عليهم فقال:

﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦٩: الأعراف)

الآلاء: النعم،واحدها «ألى» بالفتح وقد يكسر، ويكتب بالياء مثل: معى وأمعاء[4] ويكون «فاذكروا آلاء الله» أى: نعمه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ج ١ ص ١٧٠ ط دار الفكر العربى، محمد إسماعيل إبراهيم.

(٣) راجع: روح المعانى للألوسى ج ٨ ص ١٥٦.

(٤) مختار الصحاح ص ٢٣ طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

والمعنى: فاشكروا نعم الله عليكم لعلكم تفوزون بما أعد الله للشاكرين من إدامتها وزيادتها لهم، فلقد تفضل الله على عباده بأنهم إذا شكروه زادهم عطاء؛ قال تعالى:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[1]

ولن تكونوا كذلك إلا بعبادتكم لله وحده.

من منهج (هود) فى الدعوة:

بين الترغيب والترهيب:

فإن قيل: حاصل الكلام هو أن (هوداً) ـ عليه السلام ـ قال: لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم أبواب الخيرات الدنيوية، وليس الأمر كذلك؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه»[2] فكيف الجمع بينهما؟

وأيضاً: فقد جرت عادة القرآن الكريم بالترغيب فى الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والأخروية عليها.

فأما الترغيب فى الطاعات لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية فقط عليها فذلك لا يليق بالقرآن، بل هو طريق مذكور فى التوراة[3].

والجواب: أنه لما كثر الترغيب فى السعادات الأخروية لم يبعد الترغيب أيضاً فى خير الدنيا بقدر الكفاية، وبذلك جمعت دعوته بين الترهيب والترغيب.

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية: ٧.

(٢) رواه البخارى والترمذى وأحمد، والحديث صحيح.

(٣) من نبأ المرسلين ص ١٤٧.

ولقد رأينا من خلال الصفحات الماضية أن قصة (هود) ـ عليه السلام ـ بدأت بدعوة قومه (عاد) إلى عبادة الله وحده وتقواه وبيان رسالته إليهم وطلب طاعتهم، كما تبدأ قصة كل رسول إلى قومه، فأصول الدعوة إلى الله واحدة على لسان كل رسول.

وقد بادر الملأ من قومه بالتسفيه والتكذيب والصد والتولى والمبالغة بالعداء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾[1]

وموقف قوم (هود) ـ عليه السلام ـ من دعوته هو الموقف الذى يتكرر مع كل رسول من قومه كأنهم تواصوا به، فما يكون من الرسول إلا أن يصبر ويؤكد دعوته إلى تقوى الله وطاعة رسوله، وإعلان الزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة، وترفع عن قيم الأرض الزائلة، وتطلع إلى ما عند الله تعالى[2].

ولقد أنكر نبى الله (هود) ـ عليه السلام ـ على قومه كثيراً من التصرفات الخاطئة منها:

(أ) أنكر عليهم الترف فى البنيان لمجرد التباهى بالمقدرة والإعلان عن الثراء والتكاثر والاستطالة فى البناء.

(ب) كما أنكر عليهم غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا.

(جـ) وما يسخرون فيها من القوى.

---

(١) سورة الشعراء الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٧.

(٢) راجع: فى ظلال القرآن، للأستاذ/ سيد قطب، ج ٦ ص ٢٢٨.

(د) وغفلتهم عن تقوى الله ورقابته:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[1]

وهكذا كانت عين الرسل على السلوك الحضارى فى المجتمع ومحاولة تقويم اعوجاجه وتبصير المجتمع بالعواقب وردها إلى الصواب.

والريع: المرتفع من الأرض.

والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يبدو للناظر من بعد كأنه علامة، وأن القصد من ذلك هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه «عبثاً». ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم (تعبثون).

فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضرورى ونافع لا فى الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة.

وفى قوله[2]: (أتبنون) إنكار للبناء على صورة العبث كما يفعل المترفون فى الدنيا، فهذا الأمر إنما صار مذموماً لدلالته على السرف والخيلاء.

وقوله:

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (الشعراء: ١٢٩)

المصانع: مآخذ الماء وغيرها من القصور المشيدة والحصون (لعلكم تخلدون): ترجون الخلد فى الدنيا، أو يشبه حالكم حال من يخلد.

ويبدو من قوله:

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبى حيان ج ٧ ص ٣٢، وتفسير الفخر الرازى ج ٢٤ ص ١٥٧.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

أن (عاداً) كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً بعيداً حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال، وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات.

وحتى ليجول فى خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من موثرات الجو ومن غارات الأعداء.

وقد أتوا من مكمن حذرهم، وكانت طريقة هلاكهم تدمير كل هذا مما عجب الله منه[1] ثم ثالثة المآخذ عليهم:

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٠)

وحاصل الأمر فى هذه الثلاثة:

١ ـ أن اتخاذ الأبنية العالية يدل على حب العلو «أتبنون بكل ريع آية تبعثون».

٢ ـ واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء «وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون».

٣ـ والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو «وإذا بطشتم بطشتم جبارين».

وهذه صفات الإلهية، وهى ممتنعة الحصول للعبد[2].

فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه، وخرجوا عن حد العبودية، وحاموا حول ادعاء الربوبية.

وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وعنوان كل كفر ومعصية.

---

(١) راجع فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٢٢٩.

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازى ج ٢٤ ص ١٥٧.

ثم لما ذكر (هود) ـ عليه السلام ـ هذه الأشياء قال:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1]

ولقد خوفهم (هود) ـ عليه السلام ـ عذاب يوم عظيم:

فى صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب؛ فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذى لا شك فيه.

ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف لا يصلان إلى تلك القلوب الجافية الفظة الغليظة، فإذا الإصرار والعناد والاستهتار[2].

وكان جوابهم:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[3]

فأظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده، أى: سواء علينا وعظك وعدمه[4]. فإن قيل: لو قال: (أوعظت) أم لم تعظ: كان أخصر، والمعنى واحد.

والجواب: ليس المعنى بواحد، لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته، فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ.

وجعلوا قوله (وعظا) إذ لم يعتقدوا صحة ماجاء به، وأنه كاذب فيما ادعاه، وهذا منهم إنما يعنى الإصرار والعناد والاستهتار والاستخفاف بما خوفهم به، أى: فما

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٢٦، ١٣١.

(٢) راجع فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٢٢٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٣٦.

(٤) انظر: البحر المحيط، لأبى حيان: ج ٧ ص ٣٣.

يعنينا أن تعظ أو ألا تكون أصلاً من الواعظين، وهو تعبير فيه استهانة وجفوة يتبعه ما يوحى الجمود والتحجر والاعتماد على التقليد؛ ذلك أنهم لما لم يبالوا بما أمرهم به وبما ذكرهم من نعم الله وتخويفهم الانتقام منهم أجابوه:

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.[1]

وقد قرىء[2] لفظ (خلق) على وجوه:

١ ـ قرىء ـ بفتح الخاء وسكون اللام ـ ومعناه: أن هذا الذى تقوله وجئت به وتدعيه اختلاق الأولين من الكذبة قبلك؛ فأنت على مناهجهم وتخرصهم كما قالوا: «أساطير الاولين» أو: ماهذه البنية التى نحن عليها إلا البنية التى عليها الأولون، يعنى: ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كحياتهم، ونموت كمماتهم، ولا بعث ولاحساب ولا تعذيب.

٢ـ وقرىء: خلق ـ بضم الخاء واللام، وبضم الخاء وسكون اللام ـ وكلاهما يحتمل من المعانى نفس الاحتمالين:

(أ) يعنى: ماهذا الذى جئت به من الكذب إلا عادة الأولين: كانوا يلقفون مثله ويسطرونه[3].

(ب) أو: ماهذا الذى نحن عليه من الحياة والموت والإعادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر.

فحجتهم إذاً فيما هم عليه وفيما يستنكره عليهم (هود) ـ عليه السلام ـ:

١ ـ أنه خلق الأولين ونهجهم، وهم يسيرون على نهج الأولين.

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٣٧ ، ١٣٨.

(٢) انظر: البحر المحيط ج ٧ ص ٣٤، وتفسير الرازى ج ٢٤ ص ١٥٨.

(٣) راجع من نبأ المرسلين ص ١٥٨.

٢ـ ثم إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأولين (وما نحن بمعذبين) .

٣ـ ولأنهم لا يصدقونه فى وعظه وتخويفه فما هما إلا كأساطير الأولين.

وبذلك أظهروا تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد.

فعند هذا بين الله تعالى أنه: أهلكهم، وبين كيفية الهلاك فى سور كثيرة؛ إذ لا يستطرد السياق هنا فى تفصيل ما ثار بينهم وبين رسولهم من جدل فيمضى قدماً إلى النهاية: «فكذبوه فأهلكناهم» وفى كلمتين اثنتين ينتهى الأمر ويطوى قوم (عاد) الجبارون، وتطوى مصانعهم التى يتخذون، ويطوى ما كانوا فيه من نعيم: من أنعام وبنين وجنات وعيون[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[2].

وبعد: فهذا عرض مفصل لأسس دعوة (هود) ـ عليه السلام ـ قومه، ومنهجه الذى سلكه فى الدعوة معهم إلى الله عز وجل، ووضوح الهدف الذى جاء من أجله إليهم؛ فهو نبيهم ومرشدهم، وهو الناصح الأمين لهم، وقد عرفهم أنه بمقتضى أخوته لهم لا يكذبهم ولا يريد لهم إلا الخير، وكيف لا يكون وهو المرسل من قبل الله تعالى ليعرفهم بالأوامر التى يلتزمونها لكى ينجحوا أو يفوزوا؟! ولكن هؤلاء القوم عميت أبصارهم، وختم على قلوبهم، وكذبوا نبى الله (هودا) ـ عليه السلام ـ واتهموه بالسفاهة، ومع هذا قد تلطف معهم فى الجدل، وألان لهم القول، وهكذا شأن المرسلين إنما يدعون إلى الله على بصيرة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعرضون عن الجاهلين الذين هم أعداء الحق دائما؛ إذ يرون فى النبوة نوراً يعمى أبصارهم؛ إذ كيف يخضعون لبشر مثلهم؟! ولم يكتفوا بهذا فقط بل تحدوا نبيهم تحدياً سافراً واستهزأوا به واستعجلوه العذاب الذى يهددهم به.

---

(١) انظر: فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٢٣٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣٩.

فأهلكهم الله تعالى بالصاعقة التى أشار إليها فى قوله تعال:

﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1]

قال[2] قتادة: عذاباً مثل عذاب عاد وثمود.

وقال الزمخشرى: عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة.

وقد فسرها وفصلها بعد فيما يلى هذه الأية الكريمة من آيات، فقال ـ عز من قائل ـ:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[3]

فهذه الريح الصرصر المذكورة هنا بعد ذكر الصاعقة هى المراد: بصاعقة عاد.

الحاصب:

وأهلكهم بالحاصب المشار إليه فى قوله تعالى:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾.[4]

قال ابن عطية: ويشبه أن يدخل قوم (عاد) فى الحاصب؛ لأن تلك الريح لابد كانت تحصبهم بأمور مؤذية.

والحاصب: هو العارض من ريح أو سحاب أو رمى بشىء، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شمالَ الشّام تَضْرِبُنَا ... بحاصب كنديف القطن منشورِ

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.

(٢) انظر: البحر المحيط ج ٧ ص ٤٨٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٤) سورة العنكبوت ، الآية: ٤٠.

ومنه قول الأخطل:

ترمى العضاه بحاصب من ثلجها حتى يبيت على العضاه جُفالاً[1]

وقيل: هى ريح عاصف فيها حصاً ـ وفى هذا التعريف تحديد لها بالريح ....

الريح العقيم:

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾[2]

الريح العقيم: التى لا خير فيها من الشتاء: من مطر أو لقاح شجر؛ فهى تنشىء سحاباً ولا تلقح شجراً، فإن الريح (المفردة) لا تفعل شيئاً من ذلك، بل هى عقيم لا نتيجة خير لها.

وقد عرف (الريح) هنا لأن العقم فى (الريح) أظهر من الْـبَـرد الذى يضر النبات، أو الشدة التى تقصف الأشجار.

وهذا الجنس ـ وهو الريح العقيم ـ كثير الوقوع ومعروف، ثم زاده بياناً بقوله تعالى:

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

فتميزت بذلك عن بقية الرياح.

العقيم كالرميم: جملة حالية.

والرميم: التراب، أو الهشيم، أو البالى، أو الرماد، أو المنسحق، أى: جعلتهم

---

(١) انظر تفسير ابن عطية (المحرر الوحيز فى تفسير الكتاب العزيز) ج ١١ ص ٣٩٢.

(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١ ، ٤٢.

كالشيء البالى الفانى الذى لا نفع فيه بالكلية.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

وهذا التفسير عام مخصوص، كقوله تعالى:

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[2]

أى: مما أراد الله تدميره وإهلاكه من ناس أو ديار أو شجر أو نبات.

لأنها لم يرد الله بها إهلاك الجبال، والآكام، والصخور، ولا العالم الذى لم يكن من قوم (عاد).[3]

وقد ذكر الله سبحانه إهلاكه لعاد (بالريح) فى أكثر من موضع، فقال تعالى:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾[4]

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾[5]

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾[6]

---

(١) سورة الذارات، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الأحقاف ، الآية: ٢٥.

(٣) انظر: البحر المحيط ج ٨ ص ١٤٠ وتفسير الرازى ج ٢٩ ص ٤٦ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٦٦.

(٤) سورة فصلت ، الآية: ١٦.

(٥) سورة القمر، الآية: ١٩.

(٦) سورة الحاقة، الآية: ٦.

قال ابن عيينة: عتت على الخزان، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً متتابعة، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية أصولها، فهل ترى لهم من باقية: بقية.

قيل: عتت على خزانها بلا كيل ولا وزن، وروى عن رسول الله ﷺ ـ: «ما أرسل الله سَفْيَةً من ريح إلا بمكيال، ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد، ويوم نوح، فإن الماء يوم طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل» ثم قرأ:

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ» ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها.(٢)

وقد نكرها فى ذكره لها (ريحاً، وريح...)

لأن الريح الباردة المهلكة الشديدة المزعجة قلما توجد بهذه الصفات كلها مجتمعة، فلا تكون مشهورة، فنكرها.

قوله تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ (٣)

قوله: (فيها)(٤) أى: فى مهابها، أو فى الليالى والأيام، أو فى ديارهم.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١١.

(٢) انظر الكشاف، للزمخشرى، ج ٤ ص ١٥٠.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٤) انظر: البحر المحيط ج ٨ ص ٣٢١ والكشاف ج ٤ ص ١٥٠.

أعجاز نخل خاوية: أى خلت أعجازها بلى وفساداً.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ (الآية: ٨ من سورة الحاقة)

قال ابن جريج: كانوا فى سبعة أيام فى عذاب، ثم فى الثامن ماتوا وألقتهم الريح فى البحر، فذلك قوله:

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ (سورة الحاقة الآية: ٨)

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[1]

أى[2]: تقلعهم من أماكنهم، والنزع: القلع.

أى: أرسل الله ـ تعالى ـ ريحا صرصرا نازعة للناس، وجيء (بالناس) دون ضمير (عاد) ليشمل ذكورهم وإناثهم.

أو أرسل الريح نازعة.

أو: إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فأصبحت تنزع الناس.

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾

الأعجاز: الأصول بلا فروع.

ومنقعر: منقلع عن مغارسه، ساقط على الأرض.

شبههم بأصول النخل التى ليس لها فروع وقد انقلعت من مغارسها.

والنخل: اسم جنس يذكر ويؤنث، وهو هنا مذكر.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٠.

(٢) انظر: الكشاف ج ٤ ص ٣٩ والبحر المحيط ج ٨ ص ١٧٩ وتفسير الرازى ج ٢٩ ص ٤٧، ٤٨ وروح المعانى للألوسى ج ٢٧ ص ٧٨.

وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[1]

الدابر: الأصل، والكائن: خلق الشيء، وقطع الدابر: الاستئصال.

قال صاحب مختار الصحاح: يقال: قطع الله دابرهم، أى: آخر من بقى منهم، والدبار الهلاك[2].

وقطع الدابر: كناية لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك[3].

وقوله تعالى:

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .... ﴾ الآية.

الفاء هنا فصيحة، أى: فوقع ما وقع، فأنجينا هوداً والذين اتبعوه فى عقيدته برحمة عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا، أى: أهلكناهم عن آخرهم جزاءً وفاقاً.

قوله:

﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف ، الآية: ٧٢.

(٢) مختار الصحاح ص ١٩٧، للإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى.

(٣) انظر صفوة التفاسير ج ١ ص ٤٥٤ محمد على الصابونى.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٢.

أى: كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب. قال أبو السعود: أى أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا أبدا فأهلكهم الله بالريح العقيم[1].

الدروس المستفادة من قصة (هود) عليه السلام مع قومه (عاد)

ومن خلال هذا العرض المطول لقصة نبى الله تعالى (هود) ـ عليه السلام ـ فإننا نرى إنساناً كاملاً فى خلقه وسلوكه، وفى دعوته إلى الله تعالى، وهذا ما يحتاجه كل من يريد أن يسلك سبيل الرسل الكرام، ويمكن تلخيص صفات هذا النبى الكريم فى الآتى:

١ـ إنه لا يقابل الشر بمثله، بل لا يفارقه استعمال اللين فى كلامه مع قومه، ولننظر إلى قولهم له:

﴿ لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[2]

فما كان منه إلا أن نفى عن نفسه ما رماه به قومه فقال قولاً كريماً:

﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[3]

فمن تأمل هذا الجواب وجده فى ذروة الأخلاق والتلطف فى إسداء النصيحة الخالصة من شوائب جر أى منفعة.

٢ـ تلطفه بذكر نعم الله عليهم، وترغيبهم فى الإيمان، وبيان أن ذلك يحفظ عليهم حسن حالهم:

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبى السعود ج ٢ ص ١٧٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف الآيتان: ٦٧ ، ٦٨.

﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

٣ـ إن الذى يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ينبغى أن يكون آخذا أخذ هود ـ عليه السلام ـ فى سعة الصدر، وعدم مقابلة الشر بمثله، ويحتمل صلف المدعوين وسوء ردهم عليه؛ رجاء أن يظفر ببغيته منهم، ويفوز بهدايتهم أو هداية بعضهم.

٤ـ نصر الله وتأييده يصحبان رسله وأولياءه، قال ـ جل شأنه ـ:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2]

والمراد بالكلمة: ما وعدهم الله به من النصر والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة قوله سبحانه:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[3]

وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم. والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا؛ فإنه قال:

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

فهذه هى الكلمة المذكورة سابقا وهذا تفسير لها، والمراد بجند الله حزبه، وهم الرسل وأتباعهم، قال الشيبانى: جاء هنا على الجمع: يعنى قوله: (لهم الغالبون)

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.

(٣) سورة المجادلة، ،الآية: ٢١.

من أجل أنه رأس آية، وهذا الوعد لهم بالنصر والغلبة لاينافيه انهزامهم فى بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم؛ فإن الغالب فى كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال وفى كل موطن، كما قال سبحانه:

﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.[1]

٥ـ أصحاب الجاه والسلطان يستنكفون أن يتبعوا بشراً ـ فى زعمهم ـ ليس صاحب جاه ولا سلطان، ونسوا أو تناسوا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته «فيختار لها من يصلح لها من خلقه»

٦ـ الهلاك وسوء المصير للمنكرين العاصين المعرضين عن طاعة الله ورسله، والعاقبة الطيبة للذين انقادوا للحق واتبعوا رسلهم ففازوا وعزوا وسعدوا.

* * *

(١) سورة القصص، الآية ٨٣ وراجع فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٤١٥.